جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

كلية أصول الدين

المؤتمر الدولي الأول

الجهود الليبية في تفسير القرآن و علومه

المحور الأول تفسير القرآن الكريم

بحث بعنوان

الدكتور إبراهيم رفيدة ومنهجه النقدي في كتابه (النحو وكتب التفسير)

مقدمة د. مصطفى صالح القموني

Mustafa saleh algammony

الدولة ليبيا

جهة العمل جامعة طرابلس

البريد الإلكتروني mostafagamony@gmail.com

ملخص البحث

نسعى من خلال هذا البحث إلى إبراز بعض ملامح المنهج النقدى لدى عالم من علماء اللغة والتفسير في الدولة الليبية، وهو الدكتور إبراهيم عبد الله رفيدة رحمه الله، وكانت القضية الرئيسة التي تمحور حولها البحث هي الهجمة التي تعرض لها النحاة بسبب مواقفهم من بعض القراءات من غير استصحاب للخلفية المنهجية التي يؤسسون عليها آراءهم، والقواعد العلمية التي يريدون لها التعميم والاطراد، كما تناول البحث الأسس العلمية والمنهجية التي بنى عليها رفيدة آراءه وتوجيهاته لأقوال النحاة.

Abestract

We seek through this research to highlight some of the features of the critical approach of a scholar of language and interpretation in the Libyan state, Dr. Ibrahim Abdullah Rafidah, may God have mercy on him. Accompanying the methodological background on which they base their opinions, and the scientific bases that they want to generalize consistently, the research also dealt with the scientific and methodological foundations on which Rafaida's opinions were built and his directions to the sayings of the .grammarians

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

المتأمل فيما كتبه الدكتور إبراهيم رفيدة رحمه الله من آراء وقواعد مختصة بجانب النحو في كتب التفسير ستتكشف له كثير من التبصرات العلمية والآراء المنهجية الجديرة بالنظر والتأمل، لا سيما تلك التي ضمنها في مشروع عمره أهم منجزاته، أعني سفره الموسوم بـ(**النحو وكتب التفسير**).

مشكلة الدراسة:

تتمحور هذه الدراسة على فكرة رئيسة يمكن صياغتها في السؤال الآتي: ما هي ملامح المنهج النقدي الذي سلكه الدكتور رفيدة في تعامله مع آراء المفسرين المتعلقة بعلم النحو، وما هي القيمة العلمية التي أضافها لعلمي النحو والتفسير مما جعلت عددا من المختصين بعلم القرآن يثنون على جهوده ويشيدون بها؟ وما موقفه من الخلاف الحاصل بين النحاة والقُرّاء فيما ورد من قراءات متواترة تباين الثابت المستقر من القواعد التي وضعها النحاة؟

أهداف الدراسة:

نحاول من خلال هذا البحث إبراز بعض من جهود هذا العالم اللغوي الذي تعكس آراؤه قدرا كبيرا من المنهج العميق والتحليل الدقيق في التعامل مع كتب التفسير في مراحلها المختلفة.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن يكون المنهج الوصفي هو الغالب عليها، كما كان المنهج التحليلي مستصحبا، والمنهج المقارن حاضرا عندما يستدعيهما المقام.

هيكلية البحث:

توزعت عناصر هذا البحث على النحو الآتي:

1. تمهيد، يتضمن ترجمة مختصرة للدكتور رفيدة وتعريفا لكتابه **النحو وكتب التفسير**.

2. المنهج النقدي، ماهيته وأهميته وضوابطه.
3. المنهج العلمي في نقد النحاة للقراء.
4. نماذج من نقد د. رفيدة للمفسرين النحاة، بين علمية ومنهجية.
5. خاتمة.

تمهيد:

1. **ترجمة الدكتور إبراهيم رفيدة**[1]:

1.1 مولده وسيرته العلمية:

هو الشيخ إبراهيم عبد الله محمد أحمد رفيدة، ولد بمصراتة سنة 1931م، أتم حفظ القرآن بزاوية البي (المنتصر) سنة 1945م، وتلقى بعد ذلك دروساً في مبادئ بعض العلوم العربية والشرعية كالنحو والفقه.

التحق بمعهد أحمد باشا الديني بطرابلس في سنة 1946م، ودرس فيه المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم سافر في سنة 1953م إلى مصر للدراسة بالأزهر، ونال الشهادة الثانوية في هذا المعهد وكان ترتيبه الأول.

بعد ذلك التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وأتم دراسته الجامعية سنة 1958م. ثم عاد إلى ليبيا، وعُيّن في السنة نفسها مدرساً بمعهد أحمد باشا بطرابلس، وبقي فيه حتى سنة 1961م، بعدها عُيِّن مديراً للمعهد الأسمري بزليتن، وفي سنة 1963م عُهدت إليه عمادة كلية اللغة العربية بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية بالبيضاء.

وفي سنة 1969م التحق بكلية اللغة العربية لينال منها درجة الماجستير 1971م بتقدير ممتاز، ثم ختم مسيرته التعليمية في رحاب الأزهر بحصوله على درجة الدكتوراه في علوم اللغة سنة

[1] هذه الترجمة اختصار لمقال طويل ورد في آخر كتاب (بحوث في اللغة والفكر)، تضمن ترجمة مفصلة حول نشأة الدكتور إبراهيم وحياته العلمية ونشاطه الثقافي. انظر: بحوث في اللغة والفكر، جمع وتنسيق د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، د. علي أبو القاسم عون، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 2005م.ص. 732-745.

1976م. بعد حصوله على الدكتوراه انضم إلى هيئة التدريس بكلية التربية بجامعة طرابلس، ثم شارك في سنة 1977م في تأسيس قسم الدراسات العليا.

كما قام بالتدريس في كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس وبجامعة سبها، وخلال تلك المسيرة العلمية أُنجزت على يديه العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، كما كانت له مشاركات متتالية في الدروس الحسنية التي تُعقد في شهر رمضان من كل عام بحضور الملك المغربي الحسن الثاني، ألقى فيها دروسا لقيت القَبول الحسن والثناء العطر.

توفي –رحمه الله– بمدينة طرابلس سنة 1999م.

2.1 أبرز أبحاثه ومؤلفاته[2]:

للدكتور رفيدة نتاج علمي أثرى به المكتبة العربية في مجالات معرفية مختلفة، إلا أن جهده الأكبر كان منصبّاً على اللغة العربية وعلومها، وقد جُمعت جُلُّ بحوثه في كتاب حمل عنوان: (بحوث في اللغة والفكر)، ونورد هنا أبرز مؤلفاته وأبحاثه، وهي:

1. النحو وكتب التفسير الطبعة الأولى 1982م، نشرته المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع طرابلس.
2. القرآن واللغة العربية، مقال نُشر بمجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الثاني 1985م.
3. مقدمة لدراسة مناهج البحث، مقال نُشر بمجلة كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس، العدد السادس 1992م.
4. الأدب العربي وتاريخه في العصر الأموي والعباسي الأول، بمعية د. محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى 1966م، جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية – البيضاء.
5. معاني القرآن، وهو تفسير لغوي موجز، اشترك في كتابته مع أساتذة آخرين، طبع بجمعية الدعوة الإسلامية سنة 2001م.

[2] انظر: بحوث في اللغة والفكر، ص. 732–745.

6. أصالة اللغة العربية وعلومها، نشر في مجلة اللغة العربية، العدد السابع والعشرين، سنة 1982.

3.1 وصف كتاب النحو وكتب التفسير[3]:

أصل هذا الكتاب أطروحةٌ للدكتوراه في علوم العربية تحصّل عليها الأستاذ الشيخ الدكتور إبراهيم عبد الله رُفيدة مع مرتبة الشرف الأولى سنة 1976م في كلّية اللغة العربية بالأزهر.

وهو سجلٌّ واسع رصد تاريخ النحو مع القرآن وتفسيره، وخاض في أدقّ الأصول اللغويّة والقضايا النحويّة في إعراب القرآن الكريم وتوجيه قراءاته وتحليل نصوصه تحليلا لغويّا نحويّا، مع تحديد لمعالم مناهجِ المفسّرين النحويّة"[4]، كما يعالج هذا الكتاب ما تُثيره بعضُ تلك التفاسير من قضايا، وما يتميّز به بعضها من خصوصيّة، ويوضّح جوانب التأثير والتأثر بين كتب التفسير فيما بينها، وبين كتب النحو وكتب التفسير، فهو كما يقول المؤلف: "بحث نحويّ قرآنيّ تفسيريّ؛ لتناوله صلةَ النحو بالقرآن الكريم وتفسيره وقراءاته منذ نشأة النحو إلى اليوم""[5].

وقد فصّل المؤلف الباحث عنواناتِ أبوابِ كتابه تفصيلا محكما، وبحث في مكوّناتها بمنهجيّة علميّة دقيقة، وموضوعيّة فكريّة عميقة، وبأسلوب لغويّ سلس.

ذكر الدكتور المرحوم أنّ البحث تكفّل بدراسة كلّ مرحلة من مراحل التفسير بالتفصيل، مُحدّدا مسارها، مُصحّحا القول حولها، وأكّد في بداية التقديم أنّ نشأة النحو كانت في رحاب القرآن وبوحيٍ من قدسيّته، ووُجوب المحافظة عليه وصيانته من اللحن، وأنّ نموَّ مباحث النحو ونضجها كان في هذه الرحاب[6]، فالقرآن هو الأصل الأوّل من أصول النحو والدليل المتواتر الذي يُفيد العلم، والعربيّة وعاؤه، وهو كتابها الأكبر وحارسها الخالد، وناشرها في أرجاء الأرض[7]، وأشار إلى أنّ النحاة السابقين هم الذين أبلوا أحسن البلاء في توثيق نصّ القرآن بالاحتجاج لقراءاته، وبيان عللها

---

[3] انظر كتاب (النحو وكتب التفسير)، وهو بحث مرقون (غير منشور) للدكتور علي عون.
[4] انظر المصدر نفسه.
[5] النحو وكتب التفسير: 9/1.
[6] المصدر نفسه: 9/1.
[7] المصدر نفسه: 9/1، 92.

ووُجوهها، وهم الذين هيّئوا لعلماء التفسير الوسيلة الفعّالة لفهم معانيه؛ إذ كان التقاء التفسير اللغويّ والأثريّ هو السبب الأكبر في نشأة التفسير بالرأي[8].

أمّا المكوّن الموضوعيّ فقد ذكر بخصوصه أنّه تناول ظواهر كلّ مرحلة ومميّزاتها ومدى الأصالة والتقليد فيها، والفواصل بين مرحلة وأخرى، وتناول الأفكار والأقوال النحويّة، ومناهج المفسّرين .

وتشويقا لقراءة الكتاب والاطلاع على مادّته، أشاد بأفضاله وفوائده، ونوّه بميزاته ونتائجه، وأكّد على أهميّة الجوانب البحثيّة المتنوّعة فيه التي تتصل بالنحو وأصوله، وبالقراءات وعللها ومواقفِ النحاة منها، ومناقشتِه لحملة بعض المحدَثين على النحويين والردِّ عليهم، وعرضِه لتوجيهات المفسّرين النحويّين التي نقلها النحويّون في كتبهم .

2. المنهج النقدي:

1.2 ماهية المنهج النقدي:

يُعرف المنهج لغةً بأنه الطريق الواضح[9]، وفي الاصطلاح يعني "مجموعة القواعد والأساليب والأدوات العامة التي تشكل خارطة الطريق الواجب على الباحث الالتزام بها والسير عليها في دراسته للموضوع ومعالجته للمشكلة البحثية؛ من أجل التوصل إلى النتائج والأجوبة المطلوبة، وإيجاد الحلول المناسبة لها"[10].

أما النقد فيعني في اللغة فن تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده، والأصل فيه من: نقد الدراهم والدنانير وغيرهما نقدا ميّز جيدها من رديئها[11].

وفي الاصطلاح الحديث يُعرف النقد (Criticism) بتعريفين: أحدهما: الحكم (Jugement)، ويُراد به الحكم على الأشياء بالحسن أو الرداءة، أو الجمال أو القبح، والآخر: التفسير

---

[8] النحو وكتب التفسير: 9/1.

9 () انظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت ط4، 1987م، 346/1، مادة (نهج).

10 () البحث العلمي – قواعده ومناهجه، مركز نور للتأليف والترجمة، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ط1، 2016م، ص. 24.

11 () المعجم الوسيط، تحقيق: إبراهيم أنيس وآخرون، ط2، ص. 944. مادة (نقد).

(Interpretation) أو التحليل (Analyzation)، فالنقد بذلك يتّجه إلى تحليل وتجزئة النص لإدراك أبعاده وبلوغ أعماقه [12].

ويمكن القول بأن النقد العلمي هو نوع من التفكير المنطقي Arttical thinking الذي لا يتأتي ولا يُكتسب إلا بالدراسة والممارسة العملية والمهنية [13].

والقدرة علي التفكير المنطقي لا تنشأ لدى الباحث بين يوم وليلة، بل هي نتاج خبرة تتراكم خلال المراحل والأطوار العلمية المختلفة [14].

ومن الملاحظ أن الدكتور رفيدة لا يخرج عن تلك المعاني للنقد على ما يأتي بيانه، فهو يبدأ بتحليل كلام النحاة والمفسرين لغرض فهم الأدلة التي استندوا عليها، ثم يخلص من ذلك إلى الحكم عليها ونقدها وبيان مدى قربها أو بعدها من الصحة، ويبدو أنه –وبسبب تشبعه بكتب التراث وممارسته لها– قد اكتسب شيئا من أسلوبها في العرض والتحليل والمناقشة؛ فهو ليس مجرد ناقل يعرض أقوال المتقدمين من غير ما تمحيص، وإنما يغوص في دلالاتها ويعرضها على الميزان العلمي الدقيق، مبديا رأيه فيها بكل جرأة وموضوعية.

2. المنهج العلمي في نقد النحاة للقراء:

ما فتئ الدكتور رفيدة يكشف عن منهج النحاة العلمي في نقد الأقوال والترجيح بينها، ومدى دقتهم في اختيار الألفاظ، فها هو يقول بعد أن ذكر كلاما طويلا حول اختلاف النحاة في همز (النبيء) بين رافض وقابل بذلك: "ومن هذا يظهر أن المسألة مسألة علمية قابلة للنقاش، وسيبويه كان دقيقا؛ إذ وصف لغة التحقيق بالرداءة، ولم يتعرض للقراءة بسوء؛ فهي قراءة ثابتة محفوظة، وجمهور القراء على خلافها، وكان المبرد أقرب إلى الأخذ بقراءة نافع عن سيبويه، وكان أبو علي أقرب إليها منهما، وبهذا الأسلوب، وبهذه الروح العلمية نما الفكر العلمي، وبنى اللاحق على ما فعله السابق،

12 () انظر منهج النقد في التفسير د. إحسان الأمين، دار الهادي ط1، 2007م، ص. 15.
13 () انظر أصول النقد العلمي، ص. 2.
14 () المصدر نفسه، ص. 3.

واستدرك وبين وجوه النقص، أما طريقة التشنيع وتصيد الأخطاء فلا تزيد الفكر إلا خبالا، ولا تدل إلا على الضحالة والتخبط"[15].

وفي سعي منه لتوصيف ما يقوم به النحاة عند تعاملهم مع القراءات التي لا تتفق مع القواعد التي وضعوها بعد استقراء لكلام العرب واعتمادهم على الكثير الشائع منها، يقول: "إن ما اعتبره من النحويين نقدا للقراءات هو في الواقع نوع من الاحتجاج النحوي بما وردت عليه القراءات المنقودة لمجيئها على خلاف الكثير الشائع ... فأنا هنا أحاول بيان عمل نحوي، ولست بصدد بيان قراءات منقودة فقط، كما أحاول توضيح هذا العمل في نقاط محدودة، بما يظهر أن النحويين في نظرهم للقراءات كانوا يؤسسون علما ويعتمدون في ذلك على كتاب الله تعالى ويتشرفون بخدمته، ويحاولون حمل أساليبهم على أسمى المذاهب وأكثرها ورودا في كلام العرب وبعدا عن الشذوذ، ومما يؤيد ذلك أنهم ينصون عليه في معرض بعض نقودهم..." [16].

وحتى يتضح الأمر، وينجلي القصد، حصر الشيخ رفيدة تعامل النحاة مع القراءات في اتجاهين يندرج ضمنهما ما كان من النحاة من تخطئة ونقد، فيقول "يبدو لي –بعد النظر الطويل– أن نقد النحويين للقراءات يتلخص في اتجاهين رئيسين هما:

1. نقد يقوم على قواعد يقول بها جمهور النحويين، أو أحد المذهبين.
2. نقد يقوم على الاجتهاد الشخصي، وهو الكثير." [17].

ولكن مع ذلك لا يتردد د رفيدة في لَوْم بعض النحاة، عندما يكون منهم شطط في القول، وميل في القلم لا يحتمل التأويل ولا التماس العذر؛ فبعد أن ذكر نقد الزمخشري لقراءة قلب الهمزة الثانية ياء خالصة في (أئمة)، ورد ابن الجزري عليه، قال: "هذا وإن الباحث ليعجب من هذا التلحين، وهو يحاول أن يعتذر للنحاة ومنهجهم، ولكنه يصطدم بمثله؛ إذ نرى بعضهم –في هذه الكلمة– يضعف

15 () النحو وكتب التفسير: 2/1097-1098.
16 () المصدر نفسه: 2/1000.
17 () المصدر نفسه: 2/1001-1002.

التحقيق أو يلحنه، والآخر يخالف قاعدة أقرها غيره من النحاة ويرد قراءة جاءت عليها؛ لأنه رأى غيرها، فكأن كل واحد لا يقرأ إلا ما رأى، وينسى الثابت المروي المقرر عند غيره"[18].

4. نماذج من نقد د. رفيدة للمفسرين النحاة:

1.4 النقد العلمي للمفسرين النحاة:

أول ما نلحظه في منهج رفيدة –عندما تطالع كتابه– عدم تنصيب نفسه محاميا عن المفسرين ممن غلبت عليهم الصناعة النحوية، ولا يضع قلمه موضع المدافع عن كل ما يصدر عنهم من أقوال، بل على العكس من ذلك، يقدرهم قدرهم، ولكنه ينقدهم إذا ما جفا رأيهم الصواب، ودونك نماذج لذلك.

أولا: نقده لتفسير ابن عطية، يقول: "تعتبر هذه البحوث التي يعتبر أصحابها من الذين يعتمدون على أقوال السابقين من أئمة النحو ولا يعتبرون هم أنفسهم من النحويين الذين تغلب عليهم هذه الصناعة"[19]. وقال في موضع آخر: ولكنهم علماء غلبت عليهم أنواع أخرى من العلوم الإسلامية"[20]. وقال أيضا مبينا خطأ المقارنة بين تفسيري ابن عطية والزمخشري: "المقارنة بين ابن عطية والزمخشري بالمعنى الخاص غير علمية وبعيدة عن الصحة؛ وذلك لبعد ما بين منهجي هذين التفسيرين العظيمين خصوصا في الجانب اللغوي"[21]، وقال ردا على أبي حيان الذي رجح قول المهدوي في ناصب يسفك من قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[22]، على قراءة ابن هرمز، وقوله: "والعجب من ابن عطية أنه ذكر هذا الوجه أولا، وثنى بقول المهدوي، ثم قال: والأول أحسن، وكيف يكون أحسن، وهو شيء لا يقول به البصريون، وفساده مذكور في

18 () النحو وكتب التفسير: 2/1015-1016.
19 () المصدر نفسه: 2/751.
20 () المصدر نفسه: 2/752.
21 () المصدر نفسه: 2/754.
22 () البقرة: الآية 30.

علم النحو"، قال د رفيدة معقبا على قول أبي حيان: "فكأنه لا يكون أحسن إلا إذا قال به البصريون، فالعجب من أبي حيان لهذا الرد، وهو نموذج لرده عليه، وأمثاله كثيرة"[23].

وبعد أن ذكر قول ابن عطية في (إذا) من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[24]: "وحكي عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة: (خرجت فإذا زيد)، ظرف مكان، لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود؛ فإنما تضمنت المصدر، كما يقتضيه سائر ظروف الزمان"[25]، قال ناقدا لهذا القول: "وما ذكره ابن عطية هنا لا علاقة له بتفسير الآية، وإنما ذكره بمناسبة وجود (إذا) الشرطية فيها، وتعليله لقول المبرد بقوله: "لأنها تضمنت معنى جثة، ورده ذلك بكونها متضمنة معنى للمصدر كسائر الظروف، تعليلان غريبان لم أرهما في المراجع النحوية التي رأيتها، ولم أر ما يدل عليهما، بل فيها ما يدل على خلافهما، وربما أخذه من صحة الإخبار بظرف المكان عن الجثة وعدم صحته بظرف الزمان، فقال: تضمنت جثة أو تضمنت مصدرا فلم يحسن القول"[26].

ومما انتقده على القرطبي قوله في (جعل): "وقد تأتي زائدة، كما قال الآخر:

وقد جعلتُ أرى الاثنَينِ أربَعةً ... والواحِدَ اثنَينِ لَمَّا هَذَّني الْكِبَرُ

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[27]: إنها زائدة"[28]. قال د. رفيدة معلقا على هذا القول: "وهو رأي غريب؛ لأن زيادة الفعل غير معهودة، والزيادة خلاف الأصل؛ فمن الخير الابتعاد عنها في كتاب الله"[29].

---

23 () النحو وكتب التفسير: 762/2.

24 () البقرة: الآية 11.

25 () المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1422هـ، 93/1.

26 () النحو وكتب التفسير: 762/2.

27 () الأنعام: الآية 1.

28 () تفسير القرطبي: 228/1.

29 () النحو وكتب التفسير: 861/2.

2.4 النقد المنهجي:

لا يكتفي د رفيدة بالنقد للآراء التي لا يتفق مع أصحابها من الناحية العلمية، ولكن يضيف لذلك نقده للمسالك التي يخالف فيها أصحابها مقتضى المنهج العلمي الذي يعني التجرد من أي هوى أو عصبية تعمي بصر الباحث إلا عن نصرة عقيدته ومذهبه، فمن ذلك نقده للطبرسي الذي اتخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ دليلا لإثبات عقيدته، وبرهانا على مبدأ شيعته، لاويا لها ليّاً على غير وجهها، ومستخدما في تذليلها اللغة والنحو والإعراب"[30]. وبعد أن عرض توجيهات الطبرسي لهذه بما يوافق معتقده، ختم ذلك بقوله: "إنه الحماس للدفاع عن العقيدة، والإصرار على نصرتها وإبطال ما عداها، حملته على إكراه المعاني والألفاظ والأدوات لها، وإن كان ليس في بعض ما ذكره خلاف، إنما الخلاف أو البطلان في وجه الاستعمال وطريقة الاستدلال"[31].

وقال- ناقدا للقرطبي في مخالفته لمنهجه الذي رسمه لنفسه في مستهلّ تفسيره-: "وقد تجاوز ما اشترطه على نفسه من نسبة كل قول إلى قائله، فأخذ ولم ينسب في مواضع، وأخطأ فيما نسب أو نقل في مواضع"[32].

كما استعرض نماذج من أخطاء القرطبي في نقله من النحاس بتصرفه في النص تصرفا يسيء إلى المعنى، وذكر لذلك نماذج، منها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾: "وزعم الفراء أنه نصب كلا "في قراءة من خفف بقوله: ﴿ليوفينهم﴾، أي (وأن ليوفينهم كلا)، وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغلط، لا يجوز عند أحد (زيدا لأضربنه)"، قال رفيدة: أقول: إن هذه النسبة للفراء خطأ؛ لأنه حكى هذا القول ورده، فهو لم يرتضه"[33].

3.4 نقده لبعض الكُتّاب المعاصرين ممن تأثروا بالمستشرقين:

30 () النحو وكتب التفسير: 762/2.
31 () المصدر نفسه: 791/2.
32 () المصدر نفسه: 855/2.
33 () المصدر نفسه: 856/2.

عقد د رفيدة مبحثا تناول فيه رده على المستشرقين والآخذين عنهم ممن يشككون في صحة نسبة وضع النحو لأبي الأسود الدؤلي، ومحاولة إثبات التأثير الأجنبي، من ذلك قول بروكلمان: "يبدو أن أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائما محوطة بالغموض والظلام ... ومن ثم لا يمكن إصدار حكم قطعي مبني على مصادر ثابتة للحسم برأي في إمكان تأثر علماء اللغة العربية الأولين بنماذج أجنبية"[34]. ثم ذكر أحد العرب المتأثرين بهذا المنهج، وهو الدكتور أحمد أمين الذي يقول: "ذكروا أن واضع النحو أبو الأسود الدؤلي، بل منهم من نسبه إلى علي بن أبي طالب، وأنه دفعه إلى أبي الأسود رقعة مكتوبا فيها"، وكل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي وأبي الأسود تأبى هذه التعاريف، وهذه التقاسيم الفلسفية"[35]. ثم قال بعدها " والمرحوم د أحمد أمين الذي شكك في هذه الروايات وجعلها حديث خرافة رأى في قيام أبي الأسود بنقط المصحف رواية صحيحة وعملا يمكن قيامه به، مؤولا له بوضع النحو الذي تسنده إليه الروايات المطبق عليها، علما أن رواية نقط المصحف تابعة في أغلب المصادر لرواية وضع النحو، فلا أرى داعيا للتفرقة بين جزئي هذا الروايات"[36].

يقرر د. رفيدة حقيقة يجعلها تمهيدا لما سيذكر بعدُ من نقود لمن تعرض للنحاة وتجنى عليهم، أعني بذلك قوله: "يتفق النحويون على الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته المختلفة متواترة وشاذة، ولا يختلفون في ذلك، وأعمالهم النحوية وكتبهم شاهدة على أنهم بنوا النحو على كلام العرب الفصيح، وفي المقدمة من ذلك القرآن الكريم وقراءاته، وقد أثبت هذا البحث الصلة الوثيقة الأكيدة بينهما، حيث نشأ النحو في رحاب القرآن الكريم وترعرع في رحابه، وتأصلت قواعده ونمت فروعه في ظلاله وشرف خدمته"[37].

بعد ذلك كرَّ على من أراد إثبات هذه الحقيقة بالنقد والتقويم، وفي مبحث له جعل عنوانه **(حملة المُحدَثين على النحويين لموقفهم من القراءات)**، تناول فيه بالنقد ما قام به بعض المحدثين الذين تعرضوا للنحاة بالنقد والنقاش، وقد بنى هذا المبحث على ثلاثة كتب هي: (الدفاع عن القرآن ضد

34 () النحو وكتب التفسير: 845/2.
35 () المصدر نفسه: 49/1.
36 () المصدر نفسه: 50/1.
37 () المصدر نفسه: 1069/2.

النحويين والمستشرقين، وسيبويه والقراءات، وأبو علي الفارسي)، وقبل ذلك وضع قبل مناقشته لآراء هؤلاء مقدمة، قال فيها: "تميز العصر الحديث بإعادة النظر في كثير من جوانب الفكر الإسلامي والعربي في نقد الأقدمين ومناهجهم في التفكير وبناء العلوم، وكان للنحو والنحاة نصيب كبير من ذلك، وقد تضاعف هذا النصيب في السنوات الأخيرة حتى أصبح في المكتبات مجموعة من الكتب والآراء تكون ما يمكن أن نسميه حملة على النحويين لموقفهم من القراءات من المُحدَثين"[38].

1.3.4 ملامح هذا المنهج:

حاول د رفيد رصد أهم ملامح هذا المنهج على النحو الآتي:

1. تقويل النحويين ما لم يقولوا .
2. وصف النحاة بما لا يليق.
3. عدم التثبت بنقل النصوص وفهمها مما ينشأ عنه الخطأ في الفهم.
4. الحرص على تلمس الأخطاء للمنقودين.
5. الإعلاء من أقوال المخالفين للنحاة الناقدين والأخذ منها بما يناسب السياق.
6. صياغة بعض كتب هذه الحملة بعنوان وأسلوب يوحيان بالتشهير[39].

ثم تعرض بالنقد العلمي والموضوعي لتلك الكتب الثلاث ذاكر ما تضمنته من تجن على النحاة ورميهم بما هم بريئون منه وعدم المعرفة الدقيقة بطبيعة منهجمهم الذي بنوا عليه ردهم على النحاة الذين رفضوا بعض القراءات المتواترة وحكموا بالشذوذ.

ونذكر هنا أحد الكتب التي تعرّض لها بالنقد وأبرز ما فيها من تحامل على النحاة وهو:

1. كتاب الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين:

38 () النحو وكتب التفسير: 1132/2.

39 () المصدر نفسه: 1132/2-1133.

يمكن رصد الملاحظات التي سجلها رفيدة على هذا الكتاب كما يأتي:

1. وضع المؤلف النحاة موضع التهمة وشكك في إيمانهم بالقرآن الكريم؛ وذلك بجعلهم والمستشرقين في صف واحد، وهذا فيه تجن وإجحاف بحق قوم نذروا حياتهم لخدمة هذا الكتاب العظيم.
2. سلك المؤلف مسلك الانتقاء غير المنهجي لأقوال النحاة واعتراضاتهم على بعض القراءات، والمتعين هو التعامل مع النحاة بمنهج مُؤسَّس على "نظر علمي وفكر نحوي يمكن التفكير فيه بهدوء في ضوء المنهج المتكامل للإمام المنسوب إليه نقد القراءة، وهو إذ يسوق الأقوال ينثر بينها ما شاء له هواه من التعليقات والاتهامات والأوصاف، فالنحويون المتهمون طغاة حسب منطق هذا الكتاب، فهو يقول: ماذا أقول لهؤلاء الطغاة من النحاة؟"[40].
3. اتهام النحاة باتباع الهوى وتغليب الانتصار للمذهب النحوي على الحقيقة العلمية، وهذا يبدو في مثل قوله: "أما صاحبي الفراء فأمره عجب، تنتابه النزعة البصرية فينكر هذه القراءة وما أشبهها، ثم يعود إلى النزعة الكوفية فيحاول أن يجد لها تخريجا لغويا سليما"[41].

ثم تناول الشيخ رفيدة إحدى المسائل التي أوردها صاحب الكتاب السابق وجعلها محور دراسته، وهي قراءة حمزة لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ ﴾[42]، بجر (الأرحامِ)، وهي من المواضع الكبرى التي دار حولها جدل كبير بين النحاة، وهي أول مسألة تناولها صاحب الكتاب جامعا اعتراضات النحاة على صحتها، ومما قاله ذابًّا عن عرض النحاة لا سيما إمامهم سيبويه: "وسيبويه لم يتحدث عن قراءة الجر في (الأرحام)، ولم يطعن فيها لا من قريب ولا من بعيد، ولعلها لم تبلغه، ولكن القاعدة تنطبق عليها، وسيبويه وضع قاعدته على الكثير الغالب من كلام العرب"[43]. ثم يتابع القول بأن المؤلف اعتبر سيبويه والخليل هما فاتحا باب الطعن في القراءة[44]. مع نسبة هذا القول لسيبويه، إلا أن ثمة نصا للفَرّاء يفيد بتخطئته لهذه القراءة لم يأت به المؤلف،

40 () نفسه: 1135/2.
41 () النحو وكتب التفسير: 1135./2
42 () سورة النساء: الآية 1.
43 () نفسه: 1137/2.
44 () نفسه: 1137/2.

وهو قوله: "حدثني شَرِيكُ بن عبد الله عن الأعمش عن إِبْرَاهِيم أنه خفض الأرحام، قال: هو كقولهم: بالله والرحم، وفيه قبح؛ لأن العرب لا ترد مخفوضا على مخفوض وقد كنى عنه، وقد قال الشاعر فى جوازه:

نعلق فِي مثل السواري سُيُوفنا ... وما بينها والكَعْبِ غوط نفانف.

وإنما يجوز هذا فِي الشعر لضيقه"[45]. ولهذا قال د رفيدة في معرض ذكره للملامح التي رسمها لهذا المنهج: "فلعله يصدق بعد اطلاعه على هذا النص أن الفراء هو الفاتح لباب نقد هذه القراءة إن كان لابد من التفتيش عن هذا الفاتح بالأسلوب الذي اتبعه المؤلف، وأخذ يحاول جاهدا أن يثبت أن سيبويه هو الجاني الأول، وأن الكوفيين أبرياء من دون أن يتحقق من نصوصهم أو يرجع إليها في مظانها ... وهذا نموذج لما سبق أن أشرت إليه في طوابع هذه الحملة، من تلمس الأخطاء للمنقودين والإعلاء من شأن المخالفين لهم –ولو كانت موهومة– والأخذ من النصوص بالقدر الذي يخدم هذا الاتجاه، أو توجيهها وجهته"[46].

والجدير بالذكر أن ما يذكره د. رفيدة من مؤاخذات على صاحب الكتاب يريد به التحذير من هذا المسلك الانتقائي في التعامل مع القضايا العلمية التي تحتاج إلى قدر كبير من التجرد والموضوعية، وهو ما أفصح عنه بقوله: "ولا أريد هنا أن أثلب الكوفيين، وإنما أبين أسلوب المؤلف ومدى تحققه مما ينقل، وأن الحملة قائمة على التهويل والتفتيش عن أسباب الحكم على النحاة البصريين وإمامهم؛ لأنهم هم القلعة الشامخة التي في الهجوم عليها نوع من الدعاية والبطولة غير قليل"[47].

2. كتاب سيبويه والقراءات:

مجمل ما انتقده د رفيده على هذا الكتاب وما ذكره عليه من مآخذ يمكن حصره في الآتي:

---

45 () معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (207هـ) تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط1، د ت ط. 253/1.

46 () النحو وكتب التفسير: 1138/2.

47 () معاني القرآن: 1139/1.

1. اتهام سيبويه بالمعارضة الصريحة للقراءات دون النظر إلى كل مسائل الباب وربط اللاحق منها بالسابق واعتماد المنهج الانتقائي.

2. البعد عن المنهج العلمي، والاضطرابُ في نسبة الأقوال لسيبويه، فهو لم يأخذ عن سيبويه فيما ينتقده عليه من نقده للقراءات، بل اعتمد على كتاب (إعراب القرآن المنسوب للزجاج)، ثم ذكر نماذج لتلك النقولات وناقشها[48].

3. إعجابه بثلب أبي حيان للزمخشري وعدم رضاه عن أبي حيان لدفاعه عن سيبويه[49].

أما نقده لكتاب (أبو علي الفارسي) فلم يخرج بالجملة عما أبداه على الكتابين السابقين.

4.4 مجمل النقاط التي رسم بها منهج النحاة في التعامل مع القراءات:

بعد أن صال د. رفيدة وجال في بيان منهج النحاة في التعامل مع القراءات، وأوضح الأخطاء المنهجية والعلمية التي انتقدهم فيها النحاة عموما، والمعاصرون على وجه الخصوص، بعد ذلك أجمل كل ما ذكره في نقاط، أهمها ما يأتي:

1. علماؤنا القدامى الذين نقدوا القراءات كانوا أئمة مجتهدين، يؤسسون علوما، ويفرزون أنواع الرواية فيها، ويضبطون حقائقها، فكان من حقهم أن يستعملوا –دون هوى– المقاييس التي انتهوا إليها في تمحيص القراءات وتقنين الشواهد على ضوئها.
2. كان لزاما على النحويين أن يحددوا للناس الأساليب المثلى للمنطق الصحيح، فنظروا في المروي من القراءات، وكلام العرب وهو المقيس عليه، فجعلوا البناء على الأكثر والقياس على الشائع الكثير من ذلك، هو المقياس الذي يجب أن يحتكم إليه، وتبنى عليه القواعد، ويحكم على ما عداه بالقلة والشذوذ وما إليها، وقد كان البصريون ومن تبعهم أشد تحكيما لذلك وأكثر إصرارا عليه.
3. من هنا كان نقدهم للقراءات التي جاءت على غير الكثير الشائع، مما تقدمت نماذجه، وقد كان اختلاف النظر والاجتهاد في التطبيق داعيا إلى اختلاف النظرة إلى كثير من

48 () انظر، النحو وكتب التفسير، 2/ 1053–1059.

49 () نفسه، 2/ 1060–1062.

القراءات، فما يمنعه هذا يجيزه ذاك، مما كان ترك للمتأخرين ثروة واسعة وبحوثا عميقة واسعة كانت عونا لهم على الأخذ بالأكثر سماحة وصونا للقراءات والقراء من النقد والتجريح.

4. الباحث المنصف يظهر له أن ما نقل عن الأقدمين منهم هو ملاحظات عابرة، تتجه بالحكم في الغالب إلى اللغة التي جاءت عليها القراءة ولا تجرح القراءة أو القارئ [50].

الخاتمة:

بعد هذا التطواف حول ما دَوَّنه الدكتور إبراهيم رفيدة من آراء نقدية أراد من خلالها وضع المنهج الصحيح في التعامل مع آراء النحاة نصل إلى النتائج الآتية:

1. لقد سار د. رفيدة –رحمه الله– بمنهج نقدي واضح المعالم، فهو يبدأ بتحليل كلام النحاة والمفسرين لغرض فهم الأدلة التي استندوا عليها، ثم يخلص من ذلك إلى الحكم عليها ونقدها وبيان مدى قربها أو بعدها من الصحة.

2. بيّن الدكتور رفيدة منهج النحاة العلمي في نقد الأقوال والترجيح بينها، ومدى دقتهم في اختيار الألفاظ، خاصة عندما يمس الأمر جناب الكلام العزيز.

3. لا يتردد د رفيدة في الإنحاء باللائمة على بعض النحاة عندما يكون منهم شطط في القول وميل في القلم لا يحتمل التأويل ولا التماس العذر.

4. لا يكتفي د رفيدة بالنقد للآراء التي لا يتفق مع أصحابها من الناحية العلمية، بل يضيف لذلك نقوده للمسالك التي يخالف فيها أصحابها مقتضى المنهج العلمي الذي يعني التجرد من أي هوى أو عصبية تعمي بصر الباحث إلا من نصرة عقيدته ومذهبه.

5. تناول الدكتور رفيدة بالنقد لما قام به بعض المحدثين الذين تعرضوا للنحاة بالنقد والنقاش ورصد أهم أخطائهم العلمية والمنهجية في تعاملهم مع أقوالهم المهاجمة للنحاة.

50 () نفسه، 2/ 1175-1176.

6. رسم الشيخ رفيدة للباحثين ملامح المنهج العلمي الدقيق المؤسس على العلمية والموضوعية والتجرد.

7. من القضايا الكبرى التي نذر الدكتور رفيدة نفسه للتصدي لها، وتجلية حقيقتها ما قام به بعض المعاصرين من افتعال حرب موهومة بين النحاة والقراء، وما هم في الواقع إلا علماء يصدرون عن مشكاة واحدة غرضها خدمة القرآن وقراءاته.

8. مما يستفيده القارئ لكتاب الدكتور رفيدة أن كتب المتقدمين مع عظم قدرها، إلا أنها لا تخلو من أخطاء علمية ومنهجية ينبغي أن يفطن لها الباحث، ويتعامل معها بتجرد.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

1. أصول النقد العلمي، بحث منشور على موقع (منظمة المجتمع العلمي العربي) سنة 2016م على هذا الرابط https://arsco.org/article-detail-372-8-0، وهو للدكتور محمد لبيب سالم، مدير مركز المشروعات والابتكارات ونقل التكنولوجيا – جامعة طنطا.
2. بحوث في اللغة والفكر، جمع وتنيسق د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، د. علي أبو القاسم عون، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 2005م.
3. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت ط4، 1987م.
4. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، تحقيق: إبراهيم أنيس وآخرون، ط2.
5. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1422هـ.

6. معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (207هـ) تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط1، د ت ط.
7. منهج النقد في التفسير د. إحسان الأمين، دار الهادي ط1، 2007م.
8. موقف النحاة المعاصرين من القراءات (الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة نموذجا) مراجعة وتقويم، سليمان بن إبراهيم العايد، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الأول للقراءات القرآنية في العالم الإسلامي الذي عقد بمدينة مُرَّاكِش وبتنظيم من مركز أبي عمرو الداني للدراسات والبحوث القرآئية المتخصصة، وبالتنسيق مع الرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية غرة الخميس 28 ربيع الآخر/1434هـ.
9. النحو وكتب التفسير، د. إبراهيم عبد الله رفيدة، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان– طرابلس، ط2، 1984م.
10. نواهد الأبكار وشوارد الأفكار– حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ)، جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 2005م.